رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

عبر وذكريات[1]

ألحّ عليَّ إخواننا في أن نعيد طبع رسالة صوفيات فعدت إليها أكتبها من جديد، وأحشد فيها من النصوص ما يصعق وأزيد موضوعات لم تطرق من قبل، حتىٰ أربت علىٰ ضعفي حجمها الأول، وهذه هي مقدمتها:

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله محمد خاتم النبيين، وسيد ولد آدم أجمعين؛ وبعد:

فما زلت أذكر وأنا طالب في معهد طنطا الديني ذلك الشيخ الشيبة، يقسم لنا - وعيناه مُخْضَلَّتَان بالدموع، ونبرات صوته أصداءٌ عميقة بعيدة الغَوْر من الشَّجْوِ الولهان، والحنين الهائم، والحرمان الجريح - يقسم لنا أن في ضريح عبد العال المجاور لضريح البدوي شعره من رأس الرسول!!

وأنها معين خير، وفيض بركة ويُمْنٌ، ومطافُ آمال، ومَهْوَىٰ رجاء!!

وأذكر أنني حين سمعت حديث الشيبة يؤكده بقسم غليظ شعرت بقلبي وكأنما يود أن ينشق عنه الصدر؛ ليهفو في صبابته الملهوفة إلىٰ معبد الشعرة يقبلها، ويكنها في مهجته، بل شعرت كأنما حملت إلي الملائكة بشرىٰ الخلود.

وما زلت أذكر أيضًا، أنني سألت الشيخ - ليطمئن قلبي علىٰ هذا الأمل الحلو الساحر الفتنة - عما جعلهم يوقنون بنسبة هذه الشعرة إلىٰ رأس النبي الأعظم؟ فأجاب - تولاه الله بما قَدَّم - لقد وضعناها في زجاجة، وأقمنا حولها حلقة ذكر

---

(١) (٩-١٠/ ١٣٧٤هـ).

وإنشاد، فإذا بالشعرة تذكر مع الذاكرين، علىٰ دفيف الدف، وحَنَّات الناي، والنغم المطرب المرقص من الأناشيد!!

وأذكر أنني آمنت بهذه الأسطورة كأنما هي برهان من الله.

وأذكر أن الشيبة تداركنا - حتىٰ يُحْكم القيد - بحجة أخرىٰ، فزعم أنهم وضعوا الشعرة تحت أشعة الشمس، فلم يجدوا لها ظلًا!!

وكان هذا الوهم الوثني الجديد حجة عندي تدحض كل ريبة.

وأذكر- ويا رب غفرانك - أن خرافة الشيخ هذه غمرتني بنشوة سَكْرَىٰ خلت فيها أنني أرىٰ الجنة، أو أنني صحابي يتلو عليه الرسول وحي الله!!

فكنت أهفو إلىٰ هيكل الشعرة خاشعَ الطرف، رَيَّان القلب بالرهبة والولاء، أُصَلِّي لها بنجاوىٰ الحب العابد، وألثم خشب هيكلها وحجره في شغف ثائر الأشواق عربيد التلهف، وأُنَهْنِه بالأرواح العطرية التي أخال أنها تناسمني منها دموعي المسكوبة لوعة عشق وظمأ غرام!!.

وتعال معي أذكرك بأنني كنت أطوف حول صنم البدوي حتىٰ إذا مثلت أمام الكوة الصغيرة في وثنه النحاسي البراق، أنفذت منها يدي - في رعشة التقديس - حتىٰ ألمس ستر القبر، ثم أخرجها رويدًا رويدًا في حرص وحذر بالغين، وقد ضممت قبضتها علىٰ... علىٰ ماذا؟... كنت أوقن حينذاك أنني أضمها علىٰ بركات سماوية تفيض من روح الله علىٰ القبر[1].

---

(١) يزعم الصوفية أن الله قد جعل فوق كل ضريح طاغوت طاقة مفتوحة في السماء يفيض منها بركته ورحمته علىٰ القبر وزواره.

ثم أبسط يدي في جيبي، وأمسح بها وجهي، رجاء أن أكون مُيَسَّر الرزق، داني قطوفِ النجاح، مشرق الوجه بنور الله!!

وتعال - ولا تسأم من ذكرياتي، فإنها عبرة ضحية، وعظة مأساة - أذكرك بذلك الذَّوي ترجف منه الأرض، وترتعد جدر المعهد حين كانت تُوَزَّع أسئلة امتحان آخر العام الدراسي، أتدري ماذا كان يحدث؟

تهب هذه الآلاف المؤلفة من الطلبة رافعة أكفها في ضراعة ناعقة بما لا يسمع أو يبصر، حتىٰ ليبح صوتها وتتمزق حناجرها إذ تنعق ضارعة: يا سيد!!

ويا ويل الأسماع من طول «ياء» النداء، لقد كانت تطول وتطول حتىٰ ليخيل إليك أنها دخان مارد يحترق، فيلمس دخانه قبة النجم، ولعلهم كانوا يفعلون ذلك لتصل أصداء ضراعتهم إلىٰ حيث جثمت علىٰ الأرض في غيابة القبر جيفة مَنْ دَعَوْه!!

ولعلك تسألني: وماذا كان يفعل بكم شيوخكم؟!

كانوا يرفعون في سكرة الحب، وذل الخشية أيديهم المعروقة يمسحون بها وجوههم، أو يمشطون لحاهم، ومن بين الشفاه الذوابل تنساب هذه الهمهمة: (رضي الله عنه)!!، ثم يلتفتون إلينا، وعلىٰ وجوههم أَلَقُ الرضىٰ ناصحين في تأييد وإعجاب: (كفاية، ما خَلاَصْ سمعكم!!)

وتعال - وناشدتك الله إلا ما أصغيت غير مالٍّ ولا كاره - أذكرك بهذا الشيخ الكبير، والذي كان يَشْرَك الدهماء في يوم «الْكَنْسَة»!!

وكان يمزق عمامة صنم البدوي إرْبًا إربًا، ثم يهديها إلىٰ مريديه بركة - في زعمه - من روح الله التي يغرق صَيِّبُها ذَيَّالِك الوثن.

كان الشيخ له شيخ آخر هو تاجر خيط في المدينة، قد أعطاه العهد، وألبسه خرقة التصوف، وكان التاجر علىٰ أمية وجهالة، بيد أنه كان خبيرًا بزندقة الصوفية مؤمنًا بها، يبثها ويجمع الهالكين حولها.

ولقد كنا نرىٰ الشيخ الأكبر يخفض من رأسه عبودية للتاجر الصوفي!!

ثم يلثم يده في خشية ورهبة وإجلال!!

وكنا نهتف إعجابًا بصنيع الشيخ؛ إذ نراه دلائل قوية علىٰ إيمان عميق، وتواضع كريم!!

كذلك كنا نحرص كل الحرص علىٰ أن ننتشي بمشهد الشيخ، وهو يطوف حول ضريح البدوي يتلمس نحاسه وستره حتىٰ إذا بلغ فمه موضعًا منه، راح يشويه بسعير القبل من شفتيه الناريتين!!

ونحرص كل الحرص علىٰ أن نفيض من منازلنا سراعًا إلىٰ مولد البدوي، لنشهد سرادق الشيخ الذي ضربه علىٰ ساحة طويلة عريضة من الأرض، احتفاءً بمولد الوثن الأكبر، ولنطعم طعامه وشرابه ثم نخرج من السرادق الضخم الفخم مهرولين صوب النصب الكبير، أو ما يسميه الدراويش: «العمود، أو الصاري[1] نفعل هذا لعلنا نصيب بركة من القطب الغوث الذي قيل لنا أنه لا يحرص علىٰ شيء، كما يحرص علىٰ شهود الليلة الخاتمة للمولد، هو والأقطاب الأربعة والأوتاد والأبدال والأنجاب!!

---

(١) هكذا يسميه عبيد البدوي، وهو عمود طويل مفرط في الطول من الخشب مثبت في قاعدة من الأسمنت.

أو لعلنا نبصر واحدًا منهم فيما تشكل من صور[١]!!

ثم تعال معي إلىٰ الجامع الأحمدي الكبير، أو هيكل الطاغوت الأكبر، لنرىٰ هذه الحشود التي يمور ويموج بها الجامع من نساء ورجال وأطفال، وفدوا إلىٰ الصنم من كل فَجٍّ عميق، وقد أشعلوا مواقدهم يطهون الطعام، أو يصنعون الشاي «والقرفة» وأمام كل منهم «شوال» خبزه، ووعاء «دُقَّته» وقد حبا علىٰ الأرض الأطفال يبولون، أو يتبرزون!!

وهنا، وهناك حانات ذكر يرقص فيها الدراويش، وتتخلَّع الدرويشات ويزور بي شيخ من أهلي - وأنا صغير - مصر، فيجوب بي الصحراء، ويجتاز الأودية، ويسلك المفاوز نشدانًا لضريح ابن الفارض.

وهناك حيال الوثن الفارضي، يغني مرافقي قصيدة ابن الفارض: (نسخت بحبي آية العشق من قبلي) فتذرف عيناي الدموع، ويحترق قلبي شجنًا علىٰ هذا العاشق المحروم، عصف به الغرام، وأضناه الحرمان.

---

(١) كان قد حدثني نقيب صوفي من قريتي أنه رأىٰ القطب، وألقيت بسمعي كله إليه وهو يقص كيف رآه، قال: «كنا بمولد البدوي مرة دون الصاري، فسمعت من بعيد فحيح مزمار فرأيت شيخي يهرول إلىٰ باب السرادق، ثم يكسر من قامته، حتىٰ لتكاد تمس رأسه الأرض، ويرفع يديه في رعب شديد يحيىٰ بهما - رجلًا أشعث أغبر منهتك السوءة، وبيده عكاز طويل يدب به علىٰ الأرض؛ وأمامه رجل مثله ينفخ في مزمار طويل)، ثم يتنهد الرجل وهو يستعيد ذكرياته، ثم يقول: (وهكذا رأيت القطب، فقد سألت شيخي عن الرجل الأول، أليس هو القطب، وصاحب المزمار حاجبه؟ فأجاب: بلىٰ، ولكن اكتم السر!!).

كل هذا كان!! ثم ماذا؟

ثم هداني الله سواء سبيله، وسلكت بي رعايته مسلك التوحيد والإيمان، فماذا حدث بعد؟

تطلعت نفسي إلىٰ الماضي الوثني وهي نَهْب حسرة حزينة، وخميلُ أفراح معطرة، تَطَلُّعَ الناجي من السعير ما زالت في أتونه المتأجج ضحايا تعسةٌ منكودةٌ جَنَت عليها الصوفية ماجنته عَلَيَّ.

وتطلعت إلىٰ الريف الحزين يستعبد أهلَه شيوخُ الطرق، ويغصبون أيتامه ما يُوَصْوِصُ فيهم من رَمَقٍ خابي الشعاع وأراملَه ما هُنَّ في حاجة ملهوفة إليه؛ ليسددن خلة، أو يسترن عورة، ومساكينَه حتىٰ الذبالة المحترقة من حشاشتهم.

تطلعت إلىٰ الريف تجعل الصوفية منه فسادَ عقيدة، وضلالة فكر، وذلة ومهانة في الأخلاق، وَرَدْغَةَ بدع وجهالة وخرافة، وعبودية خانعة لهوىٰ الأحبار، وسدانة يعكف فيها السدنة علىٰ بغي الكهان يبشرون بسماحة بره، وأريحية رحمته.

وتطلعت إلىٰ المدينة يعيث في أرجائها الصوفية، فتحيل أهلها - حتىٰ المثقفين منهم - عبيد قبور، وعُبَّادَ جِيَف، وأحلاس منكر وزور، وموالي أَذِلَّاءَ لكل طاغية باغية!.

تطلعت إلىٰ هؤلاء وأولئك، وذكرت ما كابدته، فصرخت موجَعًا من هول الفاجعة، أحاول إنقاذ الضحايا الْمُغِذَّةِ السُّرَىٰ وراء الذئاب الضواري من الصوفية.

وأكتب ما أكتب، ضارعًا إلىٰ الله أن يمد بالعون - فمنه وحده يُسْتَمَدُّ - أن يتبين لهذه الضحايا المسكينة أنها تتجرع الْغِسْلين تحسبه رحيقًا، وتطعم الوزين تظنه فاكهة الخلد، وتدين بوثنية هي شر ما ابتدع الشيطان لأوليائه من وثنيات،

وتخالها توحيدًا مُطَيَّبًا برَوْح الله!!.

وهبت الثورة، بل قل: انبثقت روح البعث الجديد في كيان الشرق كله، وراحت تهدم، وتبني، تهدم معاقل الشر، وتدك صياصي البغي، وتشيد صروح العدالة الكريمة، والمساواة النبيلة، وتأسو جراح الشرق، وتغرس في كل واد ربيع الخير والمحبة والجمال.

إنها كانت إعصارًا راعد الدوي، ونسائم عطرية كريمة الأنداء.

إعصارًا علىٰ الظلم الاجتماعي، والفساد السياسي، ولكن بقىٰ الفساد الديني.

ويقيني أن أبطال الثورة المغاوير يؤمنون أن الخلق الطيب نور من الدين الطيب، وأن الجماعة الصالحة هي التي يقودها دين صالح، وأن المسلمين لم يبلغوا أمجادَهم إلا بدين الحق، وأن البشرية لم تسعد، ولم تبلغ كمالها إلا به، وأن الإنسانية لم تنعم بمجتمع صالح كذلك المجتمع الكريم، الذي أقام الإسلام أسسه، وشيد صرحه، وأعلىٰ ذراه.

وأن المسلمين حين زاغوا عن هدي دينهم أزاغ الله قلوبهم، فحالت أمجادُهم، ودالت دولتهم، وتنابذوا شِيَعًا تلعن كل شيعة منهم الأخرىٰ.

ويقيني أن أبطال الثورة يعملون ليكتب التاريخ مرة أخرىٰ - لا لمصر وحدها، بل للعروبة والإسلام - قصة المجد الأعظم، والحضارة الوريفة، والعلا رفَّافَ اللواء فوق أمجاد الخلود.

يعملون؛ ليجعلوا من ذلك الماضي المقدس حاضرًا ومستقبلًا للشرق العربي والإسلامي.

وإني لأرجو كما قضت الثورة علىٰ الجور الاجتماعي والسياسي أن تعمل

جاهدة - والله يعينها - في سبيل القضاء علىٰ البغي الصوفي، فتقضي بهذا علىٰ ما يفسد العقيدة والفكر والأخلاق، وتجعل من هذه الأمة أفق إيمان صحيح، وحمىٰ حق لا يستباح، ومنار فكر يشع بالهدىٰ لكل حيران.

إنها بقضائها علىٰ ذلك الشر المستطير تقضي علىٰ جرثومة الاستعمار وتراثه، فما جاء بالصوفية، أو ما عمل علىٰ التمكين لشرها، وأصنامها وطواغيتها سوىٰ الاستعمار القديم، وعلىٰ نمطه سار الاستعمار الحديث.

لقد حاول المستعمر في العُصُر السالفة القديمة أن يطيح بالإسلام وأبطاله ودعاته عن طريق القوة المادية، بيد أن المسلمين - علىٰ قلتهم، وكثرة عدوهم - حطموا كل هذه القوىٰ الباغية، إذ كانوا مع الله، فكان الله معهم يدافع عنهم ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

فكان أن لجأ الاستعمار إلىٰ دهاء المكر اللئيم، فرماهم بالبدع والأساطير، تبشر بهما المجوسية علىٰ أنهما روحانية وربانية، علىٰ أنهما دين سماوي خص به محمد بعضًا دون بعض، فكانت هذه الصوفية، بل كان أن ذهب المسلمون بددًا، بل كان أن بحث الإسلام عن وطنه، فلم يجد سوىٰ ما يجده مَنْ وراء التيه السحيق من شعاع فجر بعيد بعيد.

فكروا فيما صنعت الصوفية بكل أمة، تردوها عون البغاة الطغاة من المستعمرين، حسبكم من شرها صرفها الناس عن عبادة الله، إلىٰ عبادة الرمم والصخور، والعقول عن الإيمان بالحق، إلىٰ الإيمان بالباطل!!

إن تلك الأمنية - أمنية القضاء علىٰ بغي الصوفية - أمنية تهفو بها نفس كل مسلم إلىٰ أبطال الثورة المجيدة؛ ورعاية الله سبحانه كفيلة بأن تصبح هذه الأمنية

حقيقة ينعم بها قلب كل مسلم.

وإني لآمل أن تكون هذه الرسالة دعاء صادقًا في سمع الثورة التي عودتنا أن تصغي في إخلاص إلىٰ الحق، وأن تعمل في صدق وجد علىٰ أن تنصر الحق.

وما بهذا أستعديها علىٰ خير، إنما أستعديها علىٰ شر نجتاحه، وباطل تُزْهِقه، ووثنية تدك أصنامها، ليخلص للحق صراطه المستقيم، وللجماعة الإسلامية سبيل مجدها، وللإِخاء والحب أفقه ساطع النجم، متألق النور.

هذا الكتاب:

لهذا الكتاب الذي نصدره بهذه المقدمة قصة، فمن أعوام قليلة خلت، شكا سماحة شيخ الصوفية إخوانًا لنا من أنصار السنة بدعوىٰ أنهم ينالون من كرامة الصوفية، فكان أن رجوت وكيل النائب العام، أن أقض وحدي موقف المتهم، فلم يجد المحقق ما يأخذنا به، وقد قدمنا له الأدلة الدامغة من كتب الصوفية.

وعلىٰ صفحات مجلة الهدي النبوي، نشرت بعد التحقيق خطابًا مفتوحًا إلىٰ سماحة الشيخ، فيه ما فيه من حق يصعق باطلًا، وتوحيد يقضي علىٰ وثنية، ليعلم الشيخ ومن خلفه أنهم مهما كادوا، أو مكروا بنا، فإننا لن نسكت، ولأحنقه، فيضرب بكل سهم في جعبته فتكون فرصة أهتبلها؛ لكشف خفايا الصوفية أمام كل جهة يشكو منا إليها، وألح إخواننا أنصار السنة هنا وفي السودان وغيره في طبع الخطاب، فطبعنا منه الآف النسخ، فكان أن صودر في السودان بأمر الحاكم العام السابق، ولما أن نفدت نسخه، طبعه إخواننا في سوريا الشقيقة، فصادرته حكومة «الشيشكلي».

وألح إخواننا مرة أخرىٰ في طبعه، فعدت إلىٰ الكتاب أكتبه من جديد، وأزيده

كثيرًا من النصوص وموضوعات جديدة لم تكن في طبعته الأولىٰ، حتىٰ أربىٰ الكتاب علىٰ ضعف حجمه الأول مرتين وأكثر، ولذا لم يكن افتئاتًا علىٰ التاريخ أن أسميه: (هذه هي الصوفية)، بدلًا من اسمه الأول: (صوفيات)، وسيرىٰ القراء كما عودتهم - إنني لم أرم الصوفية بغير ماتدين به، وأننا لم نعتمد علىٰ قول أحد في الصوفية، وإنما اعتمدنا علىٰ ذكر نصوص كثيرة بينة الدلالة من كتب الصوفية، مقارنين إياها ببعض آيات الكتاب الكريم، وأحاديث خاتم النبيين ﷺ، هذا لكيلا يفتروا علينا أننا نرميهم بغير ما يفترون علىٰ الله.

كنا نستطيع أن نصنع صنيع بعض نقدة الصوفية قديمًا وحديثًا، فنأتي بفتاوىٰ أئمة المسلمين في شأن الصوفية، أو ننقل ما نقلوه هم عن الصوفية من نصوص، بيد أني رأيت أن يكون للعدل والحق الرعاية الأولىٰ، فنقلت دين الصوفية من نفس كتبهم، ذاكرًا كل كتاب صوفي نقلت عنه، وتاريخ ومكان طبعه، ورقم الصفحة التي نقلت عنها، لأرمي الظن والريب بالحق الواضح، ولأبعد كل شبهة تتوهم أننا نفتات عليهم أو نبهتهم، وليكون كل قارئ مفتيًا لنفسه بالحق، وحكمًا بيننا وبينهم.

وقد يعيب علينا بعض من سحرتهم طقوس الصوفية وشاعريتها الكهنوتية العنف في البيان والمحاجة، لكننا نقول لهؤلاء: رويدكم!!

فإنما نسمي الأشياء بأسمائها، ونصفها بما هي عليه، فلا نقول عن الزقوم: إنه تفاح الجنة، ولا عن الغسلين: إنه رحيق الفردوس، ولا عن الشرك: إنه إيمان، بل لا نحب أن نداهن فنزعم أن شرك الصوفية خطأ فحسب، كما ينافق بعض الشيوخ الذين مردوا علىٰ النفاق، ومرنوا علىٰ المخادعة والمداجاة؛ ليحسبوا مع

الكافرين، ومع المؤمنين!!

وعجب مُغْرِب في العجب أن نغضب، بل نرتجف من الحنق، إذا دعينا نحن بغير أسمائنا، ونحقر من يدعي لنفسه نسبًا غير نسبه، ثم لا نغضب من نعت الحق بأنه باطل، ولا من وصف الباطل بأنه حق!!

وعجب ذاهل الدهشة أن نرمي بالعمىٰ والجهالة من يسم الليل بأنه نهار مشمس، أو من يقول عن المر: إنه حلو، أو من يقول عن الثلاثة: إنها واحد!!

ثم لا نرمي بهما - بالعمىٰ والجهالة - من ينعت الصوفية بأنها إسلام صحيح، ومن يقول عن الطائفين حول القبور اللائذين بأحجارها الصم: إنهم مسلمون!! ثم يمكر ليحسب مع المسلمين، فيقول عن أولئك: ولكنهم مخطئون.

عجيب أن نكفر القائلين أن الله ثالث ثلاثة، ثم نحكم بالإيمان المقدس لمن يفترون أن الله عين كل شيء.

وأنه مليون ملايين، لا لشيء سوىٰ أن لهم أسماء تشاكل أسماء المسلمين!!

إن الحق والدفاع عنه يحتمان علينا أن نسمي كل شيء باسمه، ونصفه بصفاته، وإلا افترينا عليه، وجعلنا للباطل السَّوْرَة والصولة، وداجينا في الإيمان، أما هذه النعومة والطراءة والرخاوة في الذِّياد عن الحق، والجهر بكلمة الحق، أما ذلك فَشَرُّ أنواع الجبانة، والخداع والرياء والعجز الذليل!!

قولوا عنا ما شئتم!! فإن للحق صولة تجتاح كل صولة أخرىٰ، ولن ينال منها أن ترموا بعض جنوده بالعنف في البيان والمحاجة، وعجيب أن نُرْمىٰ بالعنف، أو يُنْتَقَد علينا هذا والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾ [التحريم: ٩].

قولوا ما شئتم!! فليس بنافع ما تتقولون به في الذياد عن الصوفية، أو الإبقاء علىٰ رمقها الشاحب وهي تحتضر، بل ستبقىٰ رغم ما تتقولون تلك الحقائق الصاعقة العاصفة المدمرة لهياكل الصوفية، ستبقىٰ شاهد عدل قوي وحق ساطع البرهان علىٰ أن الصوفية عدو الإسلام الألد الخصام، بيد أن هذا العدو يسحرك بفتنة التقبيل، ويسكرك بخمرة العناق حتىٰ إذا أغمضتْ عينيك النشوةُ الحالمة، أنفذ إلىٰ صميم قلبك خنجره المسموم!!.

وما نشترىٰ بما نكتب رضاء الناس وإنما نبتغي به وجه الله ورضاه، فلله ما بذلت من جهدٍ وأضرع إليه سبحانه أن يدخره لي جهدًا في سبيله، وألَّا يضيعه، وهو مولانا ونعم النصير.